الغناء والنشيد في ميزاني الشرع والجمال

الدكتور منصور رحماني

جامعة جيجل

لا يخالف أحد في أن الغناء اليوم هو أشهر الفنون على الإطلاق وأكثرها انتشارا في البلاد العربية، فلا تركب سيارة ولا حافلة ولا تفتح مذياعا، ولا تطلع على قناة فضائية ولا غير فضائية إلا وسمعت منه أشكالا وألوانا، واحتل المغنون والقيان صدارة الذكر في المجتمع ونافست أسماؤهم أسماء الملوك والأمراء والرؤساء، حيث أصبحوا يعرفون بمجرد ذكر أسمائهم دونما حاجة إلى ذكر ألقابهم وأنسابهم، واكتسبوا أموالا طائلة، وبنوا قصورا فاخرة، واقتنوا سيارات فخمة، وأصبحت العامة تلهج بذكر أسمائهم وترديد مقاطع من أغانيهم، ولا يعلن عن حفل إلا ورأيت تجمعات هائلة من الرجال والنساء والشباب والكهول أمام نقاط بيع التذاكر، فتباع جميعها مهما غلا ثمنها، وظهرت برامج إذاعية وتلفزيونية تعيش على إنتاج هؤلاء وأخبارهم، فهذا برنامج سباق الأغاني، وهذا برنامج أغنية الموسم، وهذا برنامج كلام في الغناء، وهذه المنوعات، ولا يكاد يخلو مسلسل ولا فلم ولا حصة ولا فقرة من الغناء، بل إني رأيت بعض القنوات تضطر لإنهاء برنامج هام ثري بالنقاش جد ير بالمتابعة بدعوى ضيق الوقت أو انتهائه لتثبت في مقابل ذلك أغنية، وتجاوز الأمر كل ما تقدم بظهور قنوات مختصة في بث الغناء وتتبع أخبار أهله، حتى أصبح الغناء اليوم ظاهرة بحق تستحق الدراسة.

وإلى جانب الغناء الذي يهتم في العادة بإمتاع الأسماع يوجد فن سمعي آخر قريب من الغناء أو هو نوع منه، مواز له، ينتشر في سكون، يتميز بتنوع مواضيعه، وحسن أدائه، ورقة كلماته، وسمو معانيه ولكن لم يكتب له انتشار الغناء بعد، على

الرغم من أن أصحابه لا يكادون يطلبون مقابلا من المال، ولا يتحرج أحد في سماعه أمام أهله، ذلك هو ما يعرف بالنشيد الإسلامي، وقد اختلف الناس في حكم سماع هذا وذاك بين مبيح لكل شيء ومانع محرم لكل شيء، ومميز بين نوع ونوع، وفي هذه الصفحات سوف نضع كل واحد من الفنين في ميزاني الشرع والجمال لنرى حكمه الشرعي من جهة، ومدى مطابقته لعناصر الجمال من جهة أخرى.

أولا: في ميزان الشرع لا ينفك الحديث عن حكم الغناء عن الحديث عن حكم قول الشعر وإنشاده لأن الأصل في الغناء والنشيد هو الشعر، فقد روى الترمذي أن أصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كانوا يتناشدون عنده الأشعار وهو يبتسم، واستمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ لحسان وكعب بن زهير، بل سمع حتى لامرئ القيس، وهو من أفحش الشعراء، حيث أقبل قوم من اليمن يريدون النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فضلوا الطريق ومكثوا ثلاثا لا يقدرون على الماء إذ أقبل راكب على بعير وأنشد بعض القوم :

لما رأت أن الشريعــة همــــها   وأن البياض من فرائصــــها دامي

تيممت العين التي عند ضـــارج   يفيء عليها الظل عرمضها طامي

فقال الراكب: من يقول هذا ؟ قالوا امرؤ القيس. فقال: والله ما كذب، هذا ضارج عندكم وأشار إليه فمشوا على الركب فإذا ماء غدق وإذا عليه العرمض والظل يفيء عليه فشربوا وحملوا، فلما أتوا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أخبروه وقالوا: أحيانا بيتان من شعر امرئ القيس، فقال النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ:

ذاك رجل مذكور في الدنيا، شريف فيها منسي في الآخرة، خامل فيها، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار[1] .

إن موقف النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من الشعر نابع مما تضمنه الشعر من المعاني لا من الشعر في ذاته فالمعروف عن شعر امرئ القيس أنه حافل بذكر الخمر والفواحش خلافا لشعر حسان وكعب بن زهير وحتى عنتر الذي قال فيه النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ: ما وصف لي أعرابي أحببت أن أراه إلا عنتر، وهو الذي قال:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حـــتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤ سمح الخليقة ماجـــــد لا أتبع النفس اللجوج هواها

هذا عن الشعر فماذا عن الغناء الذي هو في حقيقته شعر أو نثر يمد في بعض حروفه أو كلماته ويقصر في بعضها الآخر، وحكمه إذا كان مجردا هو نفس حكم الشعر، فإذا دعا إلى الفتنة أو الخمر أو الفواحش كما تقدم فهو حرام، وإلا فهو مباح، قال ابن عباس – رضي الله عنهما -: زوجت عائشة ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله –صلى الله عليه وسلم – فقال أهديتم الفتاة ؟ قالوا نعم. قال: أرسلتم معها من يغني ؟ قالت: لا، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم -: إن الأنصار قوم فيهم غزل، فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم، فحيانا وحياكم [2]، وفي رواية: ولولا الحبة السوداء ما جئنا بواديكم، وقالت عائشة – رضي الله عنها -: دخل علي رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وعندي جاريتان

(1)ابن قتيبة ـــ الشعر والشعراء ـــدار إحياء العلوم ـــ بيروت ـــالطبعة الثانية 1986 ص 56،67 .

(2) رواه ابن ماجة .

تغنيان بغناء بعاث[3] فاضطجع في الفراش ،و حول وجهه ،فدخل أبو بكر – رضي الله عنه — فانتهرني وقال :مزمار الشيطان عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأقبل عليه رسول الله —صلى الله عليه وسلم —و قال: دعهما ،فلما غفل غمزتهما فخرجتا [1] .مع الإشارة هنا إلى أن غناء الجاريتين كان في أيام منى ،أي أيام العيد وكان غناؤهما مجردا من الآلات ،و قد استقبل الأنصار النبي —صلي الله عليه وسلم — عند وصوله إلى المدينة بالدفوف وهم ينشدون:

طلع البدر عليـــنـــا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعـــا لله داع

وهذا الحكم ينطبق على النشيد اليوم الذي يؤدى مثل الغناء لكن بغير أوتار إلا أن يكون دفا .و إذا كان الغناء منسجما مع ما تقدم فهو مباح باتفاق، وقد أباح العلماء الغناء والسماع في عدة مواضع منها غناء الحجيج ،و هو أشعار في وصف الكعبة والمقام والحطيم وزمزم ،و سائر المشاعر لأنه يزين للناس الحج ويشوقهم إليه ،و الثاني ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو، والثالث السماع في أوقات السرور المباح كالغناء في أيام العيد وفي العرس وفي وقت قدوم الغائب ،و في وقت الوليمة والعقيقة وعند ولادة المولود وعند ختانه ،و عند حفظه القرآن العزيز [2] .

وقد ارتبط تحريم الغناء بموضوعه من جهة وقد تقدم وبما يصاحبه من معازف وأوتار وملاهي وفي الحديث :ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخز والحرير

(3)موضع بالقرب من المدينة اشتهر بالحرب التي وقعت بين الأوس والخزرج قبل إسلامهم بفعل دسائس اليهود .

(1) رواه البخاري ومسلم

(2)الغزالي أبو حامد —إحياء علوم الدين – الدار المصرية اللبنانية —ج 2 ص 300-301 .

والمعازف[3] وورد في مسند الإمام أحمد: قوله –صلي الله عليه وسلم –إن الله أمرني أن أمحق المزامير والكيارات والمعازف .و من هنا أخذ العلماء القول بحرمة الغناء وهم يقصدون هذا، حيث قال الإمام الشافعي رحمه الله –في كتاب آداب القضاء :إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ،و من استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته ،و أما مالك –رحمه الله–فقد نهى عن الغناء وقال :إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها ،و هو مذهب سائر أهل المدينة [4] .

و لم يكن الغناء حرفة حتى جاء عصر بني أمية حيث انشغل ملوكهم بمصالحهم وظهرت أمور لم تكن موجودة من قبل كالتعصب القبلي، وشعر النقائض، واحتراف الغناء، وهذه أمور تصرف الناس عن التفكير في أمر الخلافة والسياسة فظهر جملة من المغنين مثل أشعب ومعبد وجميلة وعزة الميلاء وسلامة الزرقاء وغيرهم، وكثر فسادهم حتى حكم والي المدينة عثمان بن حيان المري بإخراجهم من المدينة بعدما أشار عليه بذلك الأشراف من قريش والأنصار [5].

قال أشعب: جاءني فتية من قريش فقالوا :إنا نحب أن تسمع سالم بن عبد الله بن عمر صوتا من الغناء وتعلمنا ما يقول لك، وجعلوا لي على ذلك جعلا قيدني، فدخلت على سالم فقلت يا أبا عمر إن لي مجالسة وحرمة ومودة وسنا ،و أنا مولع بالترنم قال: وما الترنم ؟ قلت: الغناء قال :في أي وقت ؟ قلت: في الخلوة ومع الإخوان وفي المتره ،فأحب أن أسمعك فإن كرهته أمسكت عنه، وغنيته، فقال: ما

---

(3) رواه البخاري.

(4) الغزلي- المرجع السابق- ج 2 ص 293-

(5) المبرد – الكامل في الأدب – ج1 ص 380 .

أرى بأسا فخرجت فأعلمتهم .قالوا: وأي شيء غنيته ؟قلت :غنيته: قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

فقالوا :هذا بارد ولا حركة فيه، ولسنا نرضى، فلما رأيت دفعهم إياي وخفت ذهاب ما جعلوه لي رجعت فقلت :يا أبا عمر ،آخر فقال مالي ولك ؟ فلم أملكه كلامه حتى غنيت فقال: ما أرى بأسا، فخرجت إليهم فأعلمتهم فقالوا وأي شيء غنيته ؟فقلت غنيته قوله:

لم يطيقوا أن يترلوا ونزلنا وأخو الحرب من أطاق الترالا

فقالوا: ليس هذا بشيء فرجعت إليه فقال: مه، قلت وآخر فلم أملكه حتى غنيت: غيضن من عبراهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا فقال: نملا نملا – أي مهلا مهلا– فقلت: لا والله إلا بذلك السداك وفيه تمر عجوة من صدقة عمر فقال هو لك، فخرجت به عليهم وأنا أخطر فقالوا: مه فقلت: غنيت الشيخ:

غيضن من عبراهن وقلن لي ....فطرب وفرض لي فأعطاني هذا. وكذبتهم والله ما أعطانيه إلا استكفافا حتى صمت[1].

وقد استمر الغناء في الانتشار وأهله في الاحتراف مع ضعف الدولة وفساد حالها وانصراف حكامها إلى شهواهم وأهوائهم، وقد تعزز هذا الفن بظهور غناء وسماع لدى الصوفية مصحوب برقصات وحركات تتناول كلماته موضوع العشق الإلهي، كما ظهر في الأندلس فن الموشحات، ولكن كل هذه الأشكال من الغناء – وإن كانت تتناول قصائد لشعراء كبار – لم تكن لتؤثر على الاتجاه الثقافي العام،

(1)الأصفهاني –الأغاني –دار إحياء التراث العربي – مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت ج19 ص167-166.

فقصائد الشعراء، ودروس العلماء ومناظراتهم، وأخبار الجهاد، كانت تملأ أرجاء الدولة، ولم يكن للغناء وأهله إلا زوايا ضيقة يجتمع فيها من لا تدين له على الشرب واللهو والسماع، ولم يكن ذلك ليغير من موقف العلماء في النكير على المغنين والمستمعين على حد سواء ومن ذلك قول ابن القيم –رحمه الله تعالى – :

برئنا إلى الله من معشـــــر　　　بهم مرض مورد للضـــــنا
فكم قلت يا قوم أنتم علـــى　　　شفا جرف من سماع الغنا
فلما استهانوا بتنبيهـــــــنا　　　تركنا غويا وما قد جنـــا
وهل يستجيب لداعي الهدى　　　غوي أصار الغنا ديـــدنـــا
وعشنا على ملة المصطفى　　　وماتوا على تاتـــنن تـــنـــتنا

ولم يتغير موقف العلماء اليوم من موضوع الغناء، فقد سئل الشيخ محمد متولي الشعراوي عن حكم الشرع في استماع الأغاني من المطربين والمطربات، فأجاب: إنه يلهيك عن طاعة الله ويخل الإنسان عن وقاره الاتزاني، لا خير في خير بعده النار، ولا شر في شر بعده الجنة، ولا بد من مقارنة المقدمات بالنتائج [1] .

أما الشيخ ابن عثيمين فقد أجاب لما سئل عن حكم استماع الموسيقى والغناء بقوله: استماع الموسيقى والأغاني حرام ولا شك في تحريمه وقد جاء عن السلف من الصحابة والتابعين أن الغناء ينبت النفاق في القلب واستماع الغناء من لهو الحديث والركون إليه. وقد قال الله تعالى :(**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزؤا أولئك لهم عذاب مهين**) [2] ...ثم إن الاستماع

(1) الشعراوي –الفتاوى – الفتح للإعلام العربي – الطبعة الأولى 1999 ص 168 .

(2) لقمان: 6

إلى الأغاني والموسيقى وقوع فيما حذر منه النبي –صلى الله عليه وسلم – بقوله: < ليكونن أقوام من أمتي يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف >[3] يعني يستحلون الزنا والخمر والحرير وهم رجال لا يجوز لهم لبس الحرير والمعازف هي آلة اللهو [4]

وأما الشيخ يوسف القرضاوي فقد ذكر أن آفة الغناء تعود لكونه ارتبط تاريخيا وواقعيا بالترف وبمجالس الشرب، وغدا جزء أساسيا من حياة اللاهين المتحللين من فضائل الجد والعفاف، كما احترفته على مدار التاريخ فئات اتسم أكثرها بالميوعة والخلاعة والبعد عن أحكام الدين وأخلاق المتقين، ولهذا غلب على الحس الديني النفور والتنفير منه، ووقف علماء الإسلام منه – في مختلف الأزمنة – مواقف مختلفة مابين محرم وكاره ومبيح ... والمباح باتفاق هو الغناء الفطري الذي يترنم به الإنسان لنفسه، أو المرأة لزوجها، أو الجارية لسيدها، ومنه حداء الإبل، ومثله غناء النساء المعتاد في الأعراس في مجتمعهن الخاص[5] ومع هذه الإباحة التي ذكرها الشيخ القرضاوي لبعض أنواع الغناء فإنه وضع لها جملة من القيود التي لابد من مراعاتها منها:

1-لا بد أن يكون موضوع الغناء مما لا يخالف أدب الإسلام وتعاليمه، فإذا كانت هناك أغنية تمجد الخمر أو تدعو إلى شربها مثلا فإن أداءها حرام والاستماع إليها حرام، وهكذا ما شابه ذلك 2-وربما كان الموضوع غير مناف لتوجيه الإسلام

(3) رواه البخاري من حديث أبي مالك الأشعري .

(4) ابن باز وآخرون – فتاوى المرأة – دار الوطن للنشر – الرياض الطبعة الأولى 1414 هـ ص 230 .

(5) القرضاوي –الحلال والحرام في الإسلام –مكتبة وهبة القاهرة، الطبعة الحادية عشرة 1977 ص 244 – 245 .

ولكن طريقة أداء المغني له تنقله من دائرة الحل إلى دائرة الحرمة، وذلك بالتكسر والتمييع وتعمد الإثارة للغرائز والإغراء بالفتن والشهوات .

3-كما أن الدين يحارب الغلو والإسراف في كل شيء حتى في العبادة، فما بالك في الإسراف في اللهو وشغل الوقت به، والوقت هو الحياة .

4-ومن المتفق عليه أن الغناء يحرم إذا اقترن بمحرمات أخرى كأن يكون في مجلس شرب أو تخالطه خلاعة أو فجور، فهذا هو الذي أنذر رسول الله -صلى الله عليه وسلم -أهله وسامعيه بالعذاب الشديد حين قال: <ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير[1]> ثم قال: وليس بلازم أن يكون مسخ هؤلاء مسخا للصورة والشكل والصورة، وإنما هو مسخ النفس والروح، فيحملون في إهاب الإنسان نفس القرد وروح الخنزير [2] .

ونخلص مما تقدم أن حكم الشرع في الغناء أو النشيد يرتبط بثلاثة أمور هي موضوعه وما يصاحبه من آلات والظرف الذي يؤدى فيه، فأما بالنسبة للموضوع فإن الغناء المحرم هو الذي يتناول المحظورات بالإشادة سواء كانت خمرا أو وصفا لمفاتن النساء أو ما فيه إيقاظ للفتن، فإذا لم يكن كذلك فهو مباح كما قد يكون مستحبا ومطلوبا إذا كان فيه دعوة إلى الخير وأمر بالمعروف أو نهي عن المنكر، وقد دخل رجل على الإمام أحمد بن حنبل يساله عن حكم إنشاد الشعر، فقال له الإمام: مثل ماذا ؟ فقال الرجل: مثل قول الشاعر :

رواه ابن ماجة .

القرضاوي - المرجع السابق -247- 248 .

إذا ما قال لي ربـــــــي   أما استحييت تعصيني
وتخفي الذنب عن خلقي   وبالعصيان تأتيــــــني

فدخل الإمام وجلس يبكي، وقال: أمـ هذا فنعم. وأما بالنسبة للآلات فإن الاتفاق قائم على إباحة الدف دون ما عداه. وأما الظرف فيتعلق بأداء النساء فلا يكون أمام غير محارمهن، هذا دون أن ننسى ضرورة **مراعاة** الاعتدال، وأحسب أن هذه الشروط والضوابط تتوفر فيما يعرف بالنشيد الإسلامي اليوم وفي بعض غناء النساء في البيوت والله أعلم .

ثانيا: في ميزان الجمال

يرتبط الجمال في الفنون السمعية عموما ومنها الغناء والنشيد بأربعة عناصر أساسية مرتبة في أهميتها على نحو منطقي هي: **1**-المعنى **2**-اللفظ **3**-الصوت **4**-ما يصاحب ذلك من آلات، فإذا توفرت هذه العناصر مجتمعة تشنفت الأسماع، وبلغ الذوق غايته، والإعجاب منتهاه، فيتجاوز النفس الباطنة إلى الجوارح والأعضاء على نحو قول القائل :

وإذا مست المخافة قلبا   نشطت في العبادة الأعضاء

وتختلف درجة التأثر عند السامعين بحسب فهم المعنى، ومدى قدرة النفس على المقاومة، كما روي عن أبي الحسن النوري أنه حضر مجلس سماع فسمع هذا البيت :

ما زلت أنزل من ودادك منزلا   تتحير الألباب عند نزوله

فقام وتواجد وهام على وجهه. فوقع في أجمة قصب قد قطع وبقيت أصوله مثل السيوف، فصار يعدو فيها ويعيد البيت إلى الغداة والدم يخرج من رجليه، حتى

ورمت قدماه وساقاه وعاش بعد ذلك أياما ومات [1]وسوف نعالج جميع هذه العناصر واحدا واحدا .

1–المعنـــى: وهو أشرف عنصر في هذا الفن، وبه يتميز الإنسان الذكي الفهيم عن الصبيان والمجانين والحيوانات، والمعنى الجيد يطرب العقل أولا – وهو أشرف ما في الإنسان – وربما استمتع المفكرون والحكماء بالمعاني المبثوثة في ثنايا الطبيعة والحياة في صمت وسكون دونما حاجة إلى ألفاظ تعبر عنها، ويحصلون من وراء ذلك على لذة عقلية قد لا تحيط بها الألفاظ والعبارات ولا يعرف قيمتها ولا مداها إلا من ذاقها، وقد عبر الإمام الغزالي عن هذه المعاني التي أدركها ولكنه ضن بها على غيره خشية ألا تؤديها الألفاظ حقها كاملا فيفهمها الناس وفقا لذلك فهما ناقصا أو خاطئا فيتهمونه بما ليس فيه بقول زين العابدين بن علي :

إني لأكتم من علمي جواهــــره   كي لا يرى ذاك ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حــــسن   إلى الحسين ووصى قبله الحسنـــا
يا رب جوهر علم لو أبوح بـــه   لقيل لي أنت ممن يعبد الوثـــــنا
ولا ستحل رجال مسلمون دمي   يرون أقبح ما يأتونه حــــسنا[2]

وبسمو المعاني يتميز فن الكبار والعقلاء عن فن الصغار، ولذلك نجد هناك أناشيد وقصص للأطفال لا يليق أن تقدم للكبار فإذا قدمت إليهم قلقوا من سطحيتها وسذاجتها في حين أن الأطفال يطربون لها ويستمتعون بها .

---

(1) الغزالي –المرجع السابق –ج2 ص 317 .

(2) الغزالي أبو حامد – منهاج العابدين – مكتبة الجندي 1994 ص 2 .

2- اللفـــظ: وهو وعاء المعاني وسبيل إخراجها من السكون إلى عالم الوجود والإحساس، وطريقة صياغة الألفاظ وترتيبها والتعبير بها هو ما يميز الشعر عن النثر والخطابة، إذ جميعها يتضمن معاني يعبر عنها باللفظ ولكل أسلوب متعته، فقد يقرأ القارئ قطعة نثرية سواء كانت رسالة أو خطبة ويستمتع بألفاظها ومعانيها في الوقت ذاته. كما قد يقرأ قصيدة فينبهر بها، وقد قال الرسول -صلى الله عليه وسلم -: <إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا >[1]. ولقد اهتم العرب بترتيب الألفاظ على المعاني حتى أصبحت صناعتهم المفضلة وتحداهم القرآن الكريم من هذا الباب فقال: (**وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين**)[2]. وبسبب اهتمام العرب بصناعة الألفاظ والمعاني كانوا يتأثرون كثيرا بها فربما رفع بيت واحد من الشعر قوما أو وضعهم، ذكر أنه كان ضمن قبائل العرب قبيلة تسمى أنف الناقة كان الواحد منها إذا سئل عن نسبه يستحي أن ينتسب إليها وينتسب لغيرها فيقول بأنه من أسد أو كلب أو نمير حتى قال فيهم جرير بيتا من الشعر وهو :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا

فأصبح حتى غير أهلها يتظاهرون بالنسبة إليها.

ويشترك الغناء والنشيد مع النثر والشعر في المعاني والألفاظ، والأغنية الجميلة هي ما توفرت على معنى رفيع وألفاظ بليغة لطيفة متناسقة ليس بينها تناشز ولا تنافر

1 الترمذي وابن ماجة .

(2) البقرة : 23

حتى يمكن إنشادها أو التغني بها، فرب قصيدة باسقة المعاني، عالية الألفاظ والصياغة ولكن لا تصلح للإنشاد والغناء مثل قول الشاعر

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

ولذلك فإن الغناء أو النشيد يتطلب أوزانا معلومة مثل بحر البسيط والكامل وغيرهما .

3-- الصـــوت: وهو ما يميز الغناء والنشيد عن الشعر والنثر ومراعاته مطلوبة في المغني أو المنشد على حد سواء، ولكنها ليست كذلك في الشاعر والكاتب، ويتعلق الجمال في هذه النقطة بعذوبة الصوت من جهة وكيفية التحكم فيه من جهة أخرى سواء بالمد أو بالقصر ، بالسرعة أو بالوقف، ورب صيت لا يحسن الأداء، ورب مؤد جيد ولكنه ليس حسن الصوت، وهذه الخصائص الثلاث تتوفر في القرآن الكريم، فمعانيه ولا أفضل منها أو مثلها، وألفاظه معجزة، فإذا جود بصوت حسن بأن أعطي كل حرف حقه ومستحقه سلب الألباب ولا شك، وكم من كافر أسلم حين سمع تجويد القرآن الكريم، وقد كان المشركون في مكة يتحسسون على النبي – صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن وغرضهم من ذلك الاستمتاع حتى قال الوليد بن المغيرة لما سئل عما سمع من القرآن: إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه[1]. وبالإضافة إلى حسن الصوت فإن حسن الأداء يتطلب مراعاة الموضوع، فإذا كان يتناول الحرب أو الجهاد فينبغي أن يكون الأداء قويا مثلما تكون الألفاظ كذلك، ولقد تأسفت كثيرا لما سمعت إحدى المغنيات وهي تتغنج بيأيئاتها وهي تؤدي قصيدة قوية لشاعر الثورة الجزائرية الكبير مفدي زكرياء

(1) السيوطي – الإتقان في علوم القرآن – دار المعرفة بيروت ج2 ص 150 .

وقد بخست القصيدة حقها وظلمت الشاعر في قبره، وسمعت أخرى تؤدي نشيد طلع البدر علينا بصوت مفرد رقيق والجمال يتطلب أن يؤديها جماعة حتى نستحضر ذلك الماضي الجميل الذي قيلت فيه. ولا يمكن أن يكون الأداء جيدا حتى يكون صاحبه فاهما ما يقول لأن نبرات الصوت ينبغي أن تتماشى مع اختلاف المعاني، ومن أدى ما لم يفهم ربما أظهر الفرح بصوته في معاني حزينة، وربما أحدث العكس في معاني تبعث على الفرح، وروي أن الشاعر أحمد شوقي استمع يوما إلى رياض السنباطي وهو يؤدي قصيدة له، فلاحظ شوقي عبارة صعبة المعاني في أحد الأبيات الملحنة، وتعمد سؤال السنباطي عن معنى العبارة، فلما لم يحر السنباطي جوابا بادره شوقي بنصيحة غالية، يقول السنباطي إنها كانت من أهم الدروس التي تعلمها في حياته: إياك يا بني أن تلحن بيتا من الشعر، أو عبارة لا تفهم معناها [(2)]

4-الآلات المصاحبة: كالدف ونحوه، ووظيفة هذه الآلات هي سد فجوات الأداء فرب سكتة أو ترخيم أو تقصير احتاج إلى ما يسده أو يكمله، فتأتي هذه الآلات التي يشترط ألا تطغى على الجوهر المتمثل في الألفاظ والمعاني، فيجب أن تسمع الألفاظ بوضوح وإلا تحول ذلك كله إلى صخب مذموم .

وهذه العناصر مجتمعة أشبه ما تكون بوجبة غذاء كاملة حيث يمثل المعنى المادة الغذائية، في حين يمثل اللفظ الصحن الذي توضع فيه، فيما يمثل الأداء الملاعق، أما الآلات فتمثل المناديل، وهذه العناصر تتدرج في أهميتها .فهذا هو ميزان الجمال الذي يحتوي على أربعة صنجات، وسنرى فيما يلي وزن كل من الغناء والنشيد .

---

(2) إلياس سحاب – رياض السنباطي عاشق القصيدة الغنائية – مجلة العربي العدد 536 يوليو 2003 ص 127 .

أولا: الغناء في الميزان

إن الغناء الذي نزنه الآن هو الغناء العربي الحديث الذي أصبح أشهر الفنون قاطبة وأسماء أهله تملأ كل مكان، فقد حظي باهتمام بالغ على المستويين الرسمي والشعبي إلى درجة أن رئيس دولة عربية كلف وزيره للخارجية بنقل تحياته إلى مغن يقيم في دولة أخرى، وفي **حرب 1967** مع إسرائيل أرسلت طائرات عربية صور ثلاثة مغنين عرب على الجنود في جبهات القتال ردا على إسرائيل التي كانت طائراتها ترسل على جنودها قصاصات من الكتاب المقدس مكتوب عليها (أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل)، وكادت تنحصر مهام أحد وزراء الثقافة في الغناء والرقص إلى درجة أنه استقبل المغنية المدعوة في المطار ويجلس في حفلاتها في الصف الأول، وهذا وزير آخر يأمر أربعة عشرة مديرا للثقافة بتنظيم حفلات لمغنية أملا في استعادة نجمها الآفل، أما وسائل الإعلام فحدث ولا حرج، وأما عند العامة فقد بلغ السيل الزبى فلا يمكن لأحد أن يصون سمعه من الغناء مهما فعل، وهذا مرده إلى أحد أمرين إما أن يكون الغناء قد بلغ غاية الكمال والجمال بحيث تعذر الاستغناء عنه ولو للحظة، وإما أن ذلك راجع لفساد الأذواق وانحطاطها بحيث أصبحت كأذواق الإبل تستجيب لكل حادي .

والاحتمال الأول غير صحيح بيقين فلم يحدث أن بلغ الغناء ولا غيره القمة في أمة من الأمم مهما بلغت حضارتها، وذلك أبعد من أن يحدث في أمة متخلفة بكل المقاييس مثل الأمة العربية المعاصرة، ولقد حاولت أن أقدم نقدا منهجيا للغناء بالنظر في معانيه وكلماته ولكن اصطدمت بعائقين، أولهما طغيان الموسيقى الصاخبة على الكلمات فلا تكاد تسمع حقيقة ما يقال فضلا عن الفهم، وثانيهما استعمال ألفاظ موغلة في العامية الركيكة الخاصة بالدهماء في كل بلد عربي، ولا أنكر أن هناك أغاني

عربية مفهومة أديت باقتدار والسر في ذلك أنها من إنشاء شعراء كبار مثل ما كتبه الشاعر أحمد شوقي ومحمد الفيتوري، ونزار قباني وغيرهم، وهي أغاني قليلة جدا، وعلى العموم فإن الغناء العربي الحديث بعيد جدا عن ميزان الجمال ولذلك قال أحد المغنين الكبار في مصر: لو كان الأمر بيدي لأغلقت **90** بالمائة من الأفواه وأخضعت النسبة المتبقية للاختبار، وقد أدرك المغنون المعنيون ذلك ولذلك يستعين الواحد منهم بمؤثرات مختلفة لجلب المتفرجين ولا أقول المستمعين فهذا يستعين بقطيع من الراقصات، وذاك يستعين بمناظر طبيعية من مختلف أنحاء العالم، وذلك يؤدي دور المهرج فيرقص حينا، ويخرج لسانه حينا آخر ، وتلك تكشف عن أنوثتها فيأتي المراهقون والجوعى جنسيا إلى الفرجة لا الاستماع، ودليل ذلك أنهم يبدأون في التلويح بالأيدي والرقص حتى قبل أن ينطق المغني بكلمة واحدة .

إن من أسباب انتشار هذه الأشكال من الغناء فساد الأنظمة السياسية والثقافية في البلاد العربية فهناك ترويج مقصود لصرف الناس عن جادة التفكير. والساهرون على الحصص التلفزيونية فاسدة أذواقهم فرب أغنية تبعث على القيء يعلق عنها بالقول بأنها أغنية جميلة جدا. إن من واجب القائمين على الثقافة أن يبعدوا الشواذ والمراهقين عن أنظار وأسماع العامة، لأن العامة – المشتقة من العمى – تقبل على كل ما يبثه التلفزيون اعتقادا منهم أن ذلك هو الحضارة. ونشير في هذا المقام أن عمالقة الفن الغنائي الحديث بدأوا بتجويد القرآن الكريم وأداء الإنشاد الديني، ولذلك فإن كل عباقرة الموسيقى العربية في القرن التاسع عشر، والنصف الأول من القرن العشرين كانوا إما من المشايخ، أو من أبناء المشايخ، وهذه القاعدة تنطبق بدقة أكبر على

عباقرة تلحين القصيدة الغنائية، فقد كان سلامة حجازي وأبو العلا محمد من المشايخ، أما عبد الوهاب ورياض السنباطي فكانوا من أبناء المشايخ [1]

ثانيا: النشيد الإسلامي في ميزان الجمال

على خلاف ما تقدم في الغناء من عدم تمييز كلماته بسبب الموسيقى الصاخبة أو لهجته العامية، فإني صادفت في النشيد بصفة عامة قصائد فصيحة، تنطق بوضوح بعضها مصحوب بضربات دف غير مؤثرة، وبعضها الآخر لم يستعمل شيئا من ذلك عدا تقنية الصدى، على أن الشيء الذي يميز النشيد أن فيه أناشيد موجهة للكبار وأخرى للصغار يؤديها الصغار أنفسهم وذلك ما لم أجده في الغناء مستقلا، ولقد استعملت المنهج النقدي في قراءة النشيد، وعرضته على ميزان الجمال ولاحظت ما يلي :

1 بالنسبة للمعنى لاحظت أن مواضيعه كثيرة التنوع، فعلى خلاف مواضيع الغناء التي تدور في عمومها في فلك المرأة والحب مما يعبر عن جوع جنسي دفين، فإن النشيد قد تناول العقيدة وقضايا الجهاد وفلسطين والقدس، والمسائل الاجتماعية، وأركان الإسلام والسيرة النبوية، ومشاكل المسلمين والصحوة الإسلامية، ولم يهمل الإشادة والتنويه بالمرأة باعتبارها عقلا وفردا منتجا ومؤثرا في المجتمع، لا مجرد جسد وعواطف كما هو الحال في الغناء، وهو بذلك يهتم بإمتاع العقول قبل كل شيء، ولا غرو في ذلك مادام أن كتاب كلماته كلهم من مستويات جامعية عليا من أمثال الشيخ يوسف القرضاوي، والدكتور يوسف العظم، وغيرهما من كبار الكتاب

---

(1) إلياس سحاب – المرجع السابق – ص127 .

والشعراء، ويلتقي النشيد في هذه النقطة مع الغناء الذي كتب كلماته كبار الشعراء وقد تقدم .

2 – بالنسبة للألفاظ، فكل الأناشيد التي سمعتها كتبت بعربية فصحى مفهومة لكل من يفهم العربية، وهذا يدل على أن كتابها من المتعلمين والمثقفين، وهذا بخلاف الغناء الذي كثيرا ما يكتب كلماته أبناء التسرب المدرسي بعامية ركيكة مبتذلة وأفكار ساذجة سطحية .

3 – يمتاز بتناغم الصوت مع الموضوع تناغما رائعا، ففي نشيد طلع البدر علينا المنتج في المدينه والمستعمل لآلية الصدى يعيدنا الأداء إلى ذلك اليوم الذي أنشدت فيه القصيدة لأول مرة على شرف سيد الخلق – صلى الله عليه وسلم – فيخيل إليك أنك تسمع الأنصار حقيقة، فأين هذا من مغنية تؤديها بصوت لا يوحي إليك بذلك أبدا، وفي إنشاد مقطع من نونية القرضاوي تتصور المنشد وهو يساوم على عتبة باب السجن لترع اعتراف منه، فتشعر بقوة إيمانه تقول في كبرياء وتحد كبيرين: لا ؛ والأمثلة كثيرة ومتنوعة .

وهذه الخصائص مجتمعة تؤهل النشيد لأن يكون فن المثقفين والعلماء، ورب سائل يسأل فيقول: إذا كان النشيد على هذه الدرجة من الجمال فلماذا لم ينتشر ويعلو أصحابه إلى سطح الأحداث كما هو حال الغناء ؟، والجواب على ذلك أن شهرة الغناء وارتفاع أهله فوق السطح لا يدل على جماله بقدر ما يعبر ذلك عن المأساة الثقافية التي تعيشها أمتنا أداء وذوقا، بل إن حال النشيد والغناء كقول الإمام الشافعي :

أما ترى البحر تعلو فوقه جيف وتستقر بأقصى قاعه الدرر

وشهرة الغناء مرتبطة بشكل أو بآخر بالدعاية اليهودية لإفساد العالم العربي عملا بقول أحد زعمائهم: كأس وغانية يعملان في المسلمين أكثر مما يفعله ألف مدفع، وبعض المغنين وصلوا إلى الشهرة بأياد يهودية، أما النشيد فهو مرتبط بالصحوة الإسلامية التي ولدت وعاشت ولا تزال تحت الحصار والإقامة الجبرية، وأهله يتغنون بمبادئ ولم يكن هدفهم حصد المال واصطياد المعـ ـبات الغافلات .

ونخلص من جميع ما تقدم إلى أن النشيد الإسلامي قد استنفذ جميع صنجات الميزان فهو يتردد في ميزان الشرع بين الإباحة والندب، ولا يفوتني في هذا المقام أن أ ـرد هذه الحادثة الطريفة التي وقعت لي عام **1997** عندما كنت اشتغل سائقا بالأجرة حيث وأنا بالموقف جاءني رجل على الساعة التاسعة ليلا وطلب مني نقله إلى الزفزاف – **2** كلم عن سكيكدة – واتفقنا على **60** د.ج ولما تحركت السيارة وضعت نشيدا يقول فيه صاحبه: يا رب أنت الهادي وفقني للهدى، وفي منتصف الطريق قال لي: أرجعني إلى البيت لقد أثر في هذا الكلام، فقلت له: ألم تكن ذاهبا إليه ؟ قال: لا كنت ذاهبا لأسكر، فقلت له: مادام أن الأمر هكذا وتبت فلن آخذ منك شيئا: فقال بالعكس لا بد أن تأخذ أكثر وأُقسم أن آخذ منه **90** دينارا، ترى ماذا يمكن ن يحدث لو كان في الشريط غناءً!. ومن الناحية الجمالية فقد حصل على الوزن كاملا مما يؤهله لأن يكون دعوة واستمتاع في الوقت ذاته.